المثـــل

المثل فى القرآن الكريم

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون » .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

« ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا » .

« ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

إن الحديد بالحديد يفلح .

⁂

إنّما شاسٌ وابنُ حَمَلْ حَمَلْ .

الأمثال لا تغير في مضربها عن حال موردها .

إن صيغة (مَثَل) وما يشتق منها تنبىء عن معنى الحضور والظهور ، وقد تدل على المشابهة والمشاكهة ، تقول (مَثَل) الرجل بين يدي فلان ، أي حضر لديه منتصباً . و « مثل القمر » أي ظهر . و « ماثل فلانٌ فلاناً » أي شابهه . و (ماثل فلانا بفلانٍ) أي شابهه به . و (فلان مِثلُ فلان) أي شبهه و « ضرب له مثلا » أي بيّن له حجة ودليلا . و « بسط له مثلا » أي أوضح له حديثا ، ولا يخرج الدليل والحديث عن دائرة معنى

الظهور . و « تمثل الشيء » أي تصور مثاله — والمثال صفة مقدار الشيء — ولا يخرج تصور الشيء عن معنى حضوره في الخيال .

و « المَثَـل » في مصطلح الأدب ، هو القول السائر الممثل بمضربه ، أي المشبهة حالة مضربه بحالة مورده ، أي الحالة التي كان قد ورد فيها القول ، فهو استعارة تمثيلية مبنية على التشبيه المركب أي تشبيه الصورة المنتزعة من حالة المشبه بالصورة المنتزعة من الحالة التي كان عليها المشبه به ، على غرار قول بشار :

كأن مثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

وقد حصر علماء الأدب قديماً وحديثاً الكلام « في المَثَل » بهذا المعنى الذي انتهينا من تفسيره ، بحيث أصبح « المَثَـل » عند الاطلاق لا يقصد منه إلا هذا المعنى . وقـد جمعوا ما تيسـر لهم جمعه ، من الأمثال القديمة التي أصبح أكثرها لا يتبين معناه إلا بشرح قد يطول ، كما ان أغلبها قد نفر من أنس الاستعمال ، فاستوحش وصار غريباً لا يألف أقلام الكتّاب ، ولا صحائف الكتب ، ولا سطور الصحف . وقد ألّف فيها بعضهم كتاباً مثل كتاب الأمثال للمفضل الضَبّي ، وكتاب مجمع الأمثال للميداني ، ونظمها بعضهم وشرحها في مجلد ضخم مثل كتاب فرائد اللآل في مجمع الأمثال للشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي .

وقسم بعض أساتذة الأدب كلام العرب الى منظوم ومنثور ، والمنثور الى مرسل ومسجوع ، والى محاضرات وخطب وأمثال ، وعرفوا المَثَل بمثل ما سبق أن عرفناه به . ولا شك أن هذه التقسيمات مبنية على أوصاف يمتاز بها نوع من الكلام عن نوع منه ، واعتبروا تمايز الأمثال عن غيرها من كلام العرب ، بكونها عبارات موجزة لبعض الناس فشت وسار استعمالها في المخاطبات والمعاتبات ، لتصوير الحال التي ذكرت فيه بالمثال التي كانت قد أنشئت وقيلت فيه ، وذلك إما لطرافة في الصورة التي يحملها المثل ، وإما لأن

تلك الصورة توحي الى ذهن السامع ما لا تؤديه رسالة أو صحيفة أو سطور ، من تفسير أو إيضاح ، أو معنى آخر يقتضيه المقام . وهذا هو معنى الايجاز . فالسامع عند ضرب المثل له ترتسم في ذهنه صورة حال مورده شارحة له حال مضرب المثل ، فيفهم المعنى المقصود من الكلام بكل الدقة والوضوح ، فهما جامعا شتى المتفرقات ، كما لو عرضت عليك صورة شخص لتعريفه اليك ، فانها تعرّفه اليك وتحيطك به من حيثياته : المادية والمعنوية ، بأكثر مما تعرّفه صحف عديدة أو رسالة مسهبة . فان المشاهدة تؤدي في التعريف ما لا يؤديه التوصيف .

كل ما مر بحثه من خطة الأدباء في المثل صحيح مقبول مشكور . ولكنهم قد اغفلوا في كلامهم وتقسيماتهم نوعين من الأمثال يشتاق الأديب الى البحث فيهما ، وتدوين ما يتيسر تدوينه منهما :

الأول — أمثال القرآن الكريم . وهي الأهم علماً ، والأغزر فائدة .

والثاني — الأمثال العامية . وهي من نوع الأمثال التي جمعها السلف من حيث الماهية والحقيقة ، الا انها من وضع العامة لم تراع فيها الفصاحة ولا البلاغة . فهي نوع من الأدب العامي .

ولا شأن لنا في هذا المقال بالامثال التي بحث فيها الأدباء جمعاً وشرحاً ثم نظماً وتفسيراً .

أمثال القرآن الكريم

المثل في القرآن الكريم ليس من قبيل « المثل » المصطلح عليه عند الأدباء المعرف عندهم بالتعريف السالف الذكر أو بما يساويه معنى ، أو بما يعادله لفظاً ومعنى ، ولا هو على غراره . وليس هو من النوع الداخل في تقسيم المنثور الى الأقسام التي مرت الاشارة اليها آنفاً . بل هو نوع آخر أسماه القرآن الكريم (مثلاً) من قبل أن تعرف علوم الأدب « المثل » ومن قبل أن تسمى به نوعاً من الكلام المنثور وتضعه مصطلحاً له . بل من قبل أن يعرّف الأدباء « المثل » بتعريفهم الذي سبق ذكره . فقال في سورة البقرة : (إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها » .

فالمثل يعرف القرآن الكريم هو الكلام الذي يقصد به تصوير حالة ، أو واقعة ، أو شخص ، لاتعاظ القارئين والسامعين بالصورة التي صورها لهم ، أو لإيناسهم بها ، سواء أطال الكلام أم قصر ، وأشاع وفشا أم بقي في لوحته اللامعة مكتوباً محفوظاً . وهذا الضرب من الكلام من أبلغ صور التشبيه المركب ، وأدق ما يرمى إليه البليغ من الوسائل التي تبرز المعاني الخفية المضمرة ، سافرة الوجه ، واضحة الملامح ، جميلة المنظر . وإلى مثل هذا يقصد المصورون وأشباههم في وسائلهم الميسورة لهم ، وبهذا يتفاوت مقامهم ، وتتبارى مهارتهم . وحسبك معرفة بفخامة هذا الضرب من الكلام أن جاءت به الكتب المقدسة كثيرة في إيراده . « تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

وحسبك علماً بتأثيره في النفوس ، أن القرآن الكريم صدع بضرب الأمثال في كل مقام ومقال ، وأنه في أوائل صحائفه المشرقة بنور الهداية بادر بضرب المثل . فانه بعد أن قسم الناس في مفتتح سورة البقرة الى متق مفلح ، وكافر عنيد ، ومنافق خاسر ، ضرب مثلاً للمنافقين ، مصوراً حالتهم العجيبة ، بما يخفون وما يبدون ، وبسيرهم المعوج سير اليربوع في نافقائه ، وبترددهم بين التظاهر بالايمان وبين إبطان الكفر وإضماره ، فاذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، وبحيرتهم في أمرهم وعدم استجابتهم لدعوة الحق ، وبجبنهم وخورهم وخذلانهم ، وبانصرافهم عن طريق الصواب وعن تدبرهم ما يسمعون من الحكمة والموعظة . أقول ضرب لهم مثلاً رسم فيه هذه المعاني الكامنة في نفوسهم رسماً يكاد يلمس باليد ، ويشاهد بالعين ، فقال : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف

أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم أن الله على كل شيء قدير » . وخص المنافق بالتمثيل دون المتقي والكافر ، لأن أمر كل منهما واضح ، وطوية كل منهما معلومة صريحة ، ذاك معلن إيمانه مفلح ، وهذا معلن كفره معاند مبلس . فكل منهما معروف الحال ، مكشوف السيرة . بخلاف المنافق الحائر المحير ، المبطن للإنكار ، المتستر بالايمان ، الخداع البغيض ، المتلون تلون الحرباء ، الغامضة سيرته ، الخبيثة طويته . فهو الحري أن ترسم صورته القبيحة ، ويكشف عن وجهه القبيح الدميم ، ليعرف بين الناس ، فيتقوا شره ، ويتجنبوا طرقه الملتوية ، وعمله المنكر ، وسيرته الشاذة .

إن أمثال القرآن الكريم آيات بينات تصور المعاني الدقيقة والحالات الغامضة ، تصويراً بارزاً تكاد تلمس معالمه . تبعث في النفوس فرحة ، أو هيبة ، أو إرشاداً أو كشفاً عن حقيقة ، أو هداية الى الرشد ، أو نحو ذلك من المعاني الرفيعة التي توجه النفوس الى قبلة الخير ، ثم إلى تزكيتها وتطهيرها من أدران الجموح والغفلة ، وتزجي في القلوب أنواراً تنظر بها الى عجائب الكون ، فتقرأ سفر الوجود آيات بينات ، وتدرك فلسفة العالم العميقة الغور . فكل مثل من أمثال القرآن الحكيم يشرح للناس حقيقة من حقائق الاجتماع ، أو ضرباً من عجائب الطبيعة ، أو حجة دامغة لإثبات أمر انصرف عن ادراكه كثير من الناس بأنك عنه من أنك ، وعاند فيه من عاند .

واليك ما تيسر لي جمعه من أمثال القرآن الكريم بالمعنى الذي اصطلح عليه :

— ١ —

في تصوير حالة المنافقين وما هم عليه من الحيرة والخبث والغباوة والجبن :

« مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » .

(صُمٌّ) جمع أصم ، وهو من فقدحاسة السمع . (بُكم) جمع أبكم ، وهو الأخرس . (كصيّب) الصيب هو المطر ، أو المطر المنهمر المتدفق فقد جاء في الأثر، اللهم أسقنا غيثاً (صيباً) أي منهمراً متدفقاً .

فهذه الصورة التي رسمها المثل في ذهن السامع للمنافق يعجز المصور أن يصورها بريشته وأدهانه ، وإذا أجهد نفسه في دقة التصوير ، فلا مناص له من أن يستمد المعونة من صورة هذا المثل ، واذا رافقه التوفيق في المعونة فلا إخال انه يقدر أن يبعث الى ذهن الناظر من الصورة التي أجهد نفسه في إخراجها ، بمثل ما يوحي به هـذا المثـل من أشكال ، ومعانٍ وحالات ، وشؤون ، وحركات ، وسكنات ، وتحير ، وتخبط ، وغباوة ، وسوء فهم ، وجبن ، وتعشق للحياة ، ونحو ذلك مما انطوى عليه المنافق ، وجبل عليه من الأخلاق الرذيلة ، التي أوحى بها المثل .

— ٢ —

في تصوير حالة المصلح الداعي الى الرشـاد ، بين الضالين ، المعاندين وهو يدعوهم الى الحق والصواب وهم عنه معرضون ، وقد دأبوا على سيرهم في غيهم .

« ومثـل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يَسمع إلّا دعاءً ونداءً . صم بكم عمي . فهم لا يعقلون » .

« ينعق » يصيح ، يقال نعَقَ الراعي بغنمه أي صاح بها وزجرها .

فهذا المثل انتزع صورة من حالة الراعي ، بين غنمه ناعقاً بها ، صائحاً زاجراً لها ، وهي لا تعي ما يقول ولا تفهم منه شيئاً ، فلا تدرك منه غير صياحه ونداءه ، لأنها لاتملك جهاز إدراك المعنى والفهم . وشبّه بها حالة المرشد المصلح بين الضالين المعاندين ، وهو يعظهم ويخطب فيهم ، وهم لا ينتفعون بما يقول ، ويصرون على ما هم عليه ، وهم يملكون جهاز الادراك ، فلهم آذان ولـكن لا يسمعون بها سماع تفهم ، ولهم عيون ولـكن عليها

غشاوة الضلال فلا يبصرون بها منار الهدى ، ولهم ألسن ولكن لا تنطق بالصواب والحق ، فهم صم بكم عمي ، فهم لا يعقلون. فلا فرق بينهم في النتيجة وبين غنم الراعي وهو ينعق بها .

— ٣ —

في تصوير مكاسب من يبذل ماله في سبيل الخير ، وما يجنيه من الثمرات .

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

فتصور بداءة منظر لشخص يدفع درهما في سبيل الخير لا يقصد به إلا وجه الله والمنفعة العامة وبجانبه شخص آخر يزرع حبة من حنطة مثلا في أرض طيبة ، فنبتت الحبة ونمت وتفرع منها سبع سنابل أو أضعافها ، خضر مليئة بالحب ، تحمل كل واحدة منها مائة حبة أو أكثر بأخذها زارع الحبة ، ودافع الدرهم ينظر ، مؤمـــلا أن ينال من الثواب الكثير مثل ما نال صاحب الحبة من الحب الكثير . فهذا التمثيل يشرح مكاسب عمل الخير أتم شرح ويدعو الى عمل الخير ويسوق اليه .

— ٤ —

في تمثيل الباذلين أموالهم مباهاة ورئاءاً للناس أو لغرض شخصي ، لا يقصـدون به فعل الخير .

« فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً . لا يقدرون على شيء مما كسبوا » .

(صفوان) صخر أملس . (وابل) مطر شديد ضخم القطر (صلداً) صلباً أملس .

فهذا المثل يبدي أجلى منظر لحالة المنفق ماله رئاء الناس ، وما كسبه من الثمرات ، وما آلت إليه نفقته من البطلان والخسران .

— ٥ —

في حالة الباذلين أموالهم بسخاء من أنفسهم بغية مرضاة الله تعالى وإرضاء ضمائرهم ،

وما تؤتيه أعمالهم من خير محقق .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطلٌّ » .

(جنة) بستان . (الربوة) ما ارتفع من الأرض . (الأكل) الثمر والرزق . (الطلّ) الندى ، أو أخف المطر وأضعفه .

فالمثل هنا يرسم صورة زاهرة تعبر عن نفقة المنفقين أموالهم للخير وما تؤتيه من نفع . فهو يصورها ببستان — وهي تجمع أنواع الثمرات — قائمة على أرض مرتفعة تستدر المطر الشديد فيصيبها ، أو يصيبها الطل إن لم يكن مطر . فهي ريّا دائماً ، متحققة الإثمار على كل حال ، يتضاعف ثمرها لزكاة مائها وطيب تربتها . فنفقة الخير الخالصة لله هذه صورتها .

في من يبطل آثار عمله الصالح بإلحاقه إياه بعمل مفسد له . فمن ينفق ماله في سبيل الخير ثم يتبع نفقته بالمنّ على من أنفق عليه أو بأيذائه بتعييره بها ، فان كرامة نفقته تزول ، ويمّحى أثرها . وقد ضرب هذا المثل في هذا المضمار .

« أيود أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكِبَر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » .

(إعصار) ريح تهب من الأرض كالعمود ، أو ريح تثير السحاب ، أو التي فيها نار .

يتضمن هذا الكلام مثلاً بارعاً لمن يحصل على نتائج مرضية من جهوده ثم يطرأ عليها ما يمحوها من الوجود والاعتبار ، وليس له قوة ولا نصير لدفع ما ألم بها .

— ٧ —

في حالة المرابي من انشغال باله بانماء ماله بلا تعب ، وذهوله عن نفسه باضطراب ذهنه دائماً في حساب الدينار والدرهم والفلس من الربا ، وتحضير ما يدعو الى خضوع المراجعين لأمره من أساليب ، وتعمقه في الحساب الدقيق .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .

أي كما يقوم المجنون في حال جنونه إذا صرع وسقط ، فما أصدق هذا التصوير المعجز ، في المرابي . يقال : (تخبطه الشيطان) إذا مسّه بأذى .

— ٨ —

في بيان مصير ما ينفقه ذوو المبادئ الفاسدة الرخيصة لتدعيم مبادئهم ، وما تخلفه تلك النفقات .

« مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

(الصرّ) شدة البرد .

فهذا التصوير يؤدي أوضح بيان عن مغبة مثل هذه النفقات . فانها تضمحل ولا يبقى لها أثر ، كما تهلك الريح العاصفة ما أتت عليه من زرع ونحوه .

— ٩ —

في تصوير حالة من يرجع الى ما كان عليه في ماضيه الأسود ، بعد ان دخل في حياة مشرقة بنور الصلاح والهدى .

« كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى إئتنا . قل إنّ هدى الله هو الهدى » .

(استهوته) إستنزلته ، أو زينت له هواه . (حيران) لا يهتدي لسبيله .

— ١٠ —

في المقارنة بين من يستجيب للمصلحين فيستمع القول ويتبع أحسنه ، فيصبح عضواً صالحاً في المجتمع ، وبين من يبقى عاكفاً على ضلاله .

« أو من كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن هو في الظلمات ليس بخارج منها » .

— ١١ —

في طيب الأصل وزكاة المنبت ، وفي فساد المجتمع وخبث المنبت .

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » .

(نكداً) قليلا عسرا .

فما أدق هذا التمثيل في طيب الأعراق وخبثها وما ينبعث عنها من نتائج صالحة أو طالحة .

— ١٢ —

في من يُصِرّ على سوء خلقه ، ويقيم على قبيح عمله ، ولا ينفع فيه ما يدعوه الى تعديل ما اعوج فيه ، وتبديل ما قبح منه ، فهو لا يقلع عن خطته .

« فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

(ان تحمل عليه) أي تهاجمه . (يلهث) يخرج لسانه تعباً أو عطشاً .

ولا تخفى طرافة هذا التمثيل ودقته في الموضوع .

— ١٣ —

في الغافل الذي لا ينتفع بما عنده من وسائل الانتفاع .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » .

(ذرأ) خلق . (قلوب) عقول . القلب يطلق على العضو المعروف في الانسان الذي يضخ الدم الواصل اليه ، إلى المجاري الدموية . ويطلق على العقل . والقرآن الكريم جرى على هذا الاطلاق الثاني ، وكذلك أكثر الأحاديث النبوية . فهذا المثل يصور من ملك العقل والبصر والسمع — وهي وسائل الفهم — ولم ينتفع بها فيما يراه ويسمعه ويدركه ، يصورهم بالأنعام التي لا تملك العقل فلا تدرك مما تراه وتسمعه إلا قدر ما يهديها الى رزقها وما يشعرها بما يضرها — أهمها غورها وتقواها — بل قدّر أن الأنعام أحسن حظاً منهم لأن الأنعام تدرك هذا القدر من ضروريّاتها مما تسمع وترى ، وهم غافلون .

— ١٤ —

في تصوير صفة الحياة الدنيا في تقلبها، كتجهمها بعد انشراحها، وانقباضها بعد انطلاقها، وانطفاء جمالها بعد بهجتها وازدهارها، وعسرها بعد يسرها، وضيقها بعد اتساعها، فهي لا تستقر على حال فلا تصلح أن تكون منتهى ما يتطلبه العاقل، والغاية المثلى التي يجري وراءها:

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام. حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون ».

(زُخرُفها) كمال حسنها وألوان نباتها. (حصيداً) محصودة لا زرع فيها (لم تغنَ) لم تُسكن.

فهذا المثل المبين لتقلب الحياة من صفو الى كدر، ومن زهو الى عدم، ومن أمل الى يأس، ومن رجاء الى قنوط، لأبلغ مثل لقوم يتفكرون. يعجز أمهر المصورين من تصوير ما جاء به، مهما أوتي من أصباغ وريش، ويقف النحّات عند حده مهما أوتي من ألواح طيّعة وأزاميل قوية حادّة.

— ١٥ —

في بشاعة وجوه الكافرين يوم الحساب:

« كأنما أغشيت وجوههم قِطعاً من الليل مظلماً ».

(أغشيت) غطيت. فالوجوه الكالحة المظلمة من سوادها، لا تمثل بابلغ من أن تكون قد غطيت بقِطع من الليل المظلم، لا بقطعة واحدة منه. فالذهن يستخلص من هذا المثل الموجز صورة بالغة في السواد والقبح، فتدركه عظة بالغة، لا تدركه من لوحة المصور وان عظم حجمها وأغمق سوادها قاتماً. فما أبلغ هذا الايجاز.

— ١٦ —

في من يتطلب الشيء ممن لا يقدر عليه ، أو من يطلب المحال .

« كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . وما دعاء الكافرين إلا في ظلال » .

فالقرآن العظيم ضرب هذا مثلا لعبدة الأوثان ونحوهم ممن يتضرعون الى غير الله طالبين منه ما يرجون حصوله وتحقيقه من الشؤون . ومن المحال أن يستجيب لهم . ولا أبلغ من صورة هذا المثل في الموضوع .

— ١٧ —

في الموازنة بين الضال والمهدي .

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا » .

لا يستويان بلا شك .

— ١٨ —

في المقايسة بين الضال والراشد ، والضلال والهدى :

« قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » .

فالضال كالأعمى الأصم الذي لا يرى المصلح ولا يسمع ما يقوله سماع تفهم ، والمهدي الراشد بصير يرى المصلح ويسمع ما يقوله سماع تفهم .

والظلمات تطمس السبل والصُوى ، وتضل الدليل وتغشى الحقائق ، وهكذا الضالون .

والنور ينير السبل ويجلّي الصُوى ويظهر الحقائق ، وهكذا المصلحون .

— ١٩ —

في الحق والباطل وثبات الحق وزوال الباطل :

« أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زَبَداً رابياً . ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فاما الزبد فيذهب جُفاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض . كذلك يضرب الله الأمثال »

(رابيا) عالياً على وجه الماء . (حلية) ما يزين به من مصوغ المعدنيات والحجارة . (جُفاء) ما رمى به الوادي الى جنباته من الغثاء .

صور هذا المثل الحق والباطل صورة مشتقة من سيل الوديان عياد الأمطار الغزيرة الجارفة تحمل على وجهها ما اعترضها من غثاء زبداً رابياً ، كما تحمل معها مواد نافعة للزراعة والعشب ، فهذا السيل الطاغي يرمي في مسيره بالزبد الى جنباته ، إذ لا فائدة فيه للأرض فيذهب جفاءاً ، وما ينفع الزراعة والعشب من المواد كالغرين ونحوه ، يبسطه على وجه الأرض ماكثاً فيها لينتفع منه الناس . فالباطل مثل هذا الزبد يذهب جفاءاً وان جاء راكباً ظهر الماء . وما ينفع الناس يبقى ثابتاً على وجه الأرض وان جاء سائحاً مع الماء . ويتمم المثل هذه الصورة بحال المعادن من ذهب وفضة وحديد وصفر ونحوها ، عندما يراد الصنع فيها فتُسلط عليها حرارة عالية تصهرها حتى تذوب فيطفوا ما خالطها من مواد خبيثة غريبة عنها زبداً رابياً على وجه الذوب ، فينفي الصانع هذا الزبد ويرمي به جفاءا وتمسك موادأصل المعادن في محلها محتفظاً بها ، فيصنع منها الحلي للزينة ، أو الأمتعة الأخرى من سائر مرافق الحياة . فهذا الزبد يمثل الباطل الذي يزول ويزهق وان علا وقتاً ما ، وأصل مواد المعادن التي تبقى للانتفاع منها تمثل الحق الذى يبقى راسخاً في محله يصارع الباطل فيزهقه .

— ٢٠ —

في صفة الجنة التي يستحقها المتقون بوعد الله وثوابه :

« مثل الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عُقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » .

(عقبى) جزاء . فالعقبى جزاء الأمر ، يقال أعقبه أي جازاه .

فهذا المثل يصور الجنة التي وعد الله تعالى المتقين بها . وما ألطف صورتها في المثل! . فهي عقبى الراغب فيها وجزاؤه ، كما ان النار جزاء الكافر بالله الجاحد نعمه وفضله .

— ٢١ —

في مغبة أعمال المفسدين وما تقدموا به من خير على زعمهم :

«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد » .

(يوم عاصف) يوم تعصف فيه الريح أي تشتد .

يصور المثل أعمال المفسدين وآثارها في سبيل الفساد برماد عصفت به الريح في يوم استمرت فيه الرياح العاصفة ، (يوم عاصف) فمحت آثاره ولم يبق منه شيء ما يقدر صاحبه على الإحتفاظ به والإفادة منه . فاصبحت أعمالهم المبنية على الفساد والإفساد هباءاً منثوراً .

— ٢٢ —

في قوة الكلام الطيب ونتائجه الطيبة ، وقوة الكلام الخبيث :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .

(اجتثت) استؤصلت . أي قطعت بعروقها ، لضعف العروق .

الشجرة الطيبة مثل النخلة من الأشجار الراسخة العروق في الأرض لا تقتلعها الزعازع ، تعطي الناس ثمراً طيباً في موسم الإثمار حيناً بعد حين . والشجرة الخبيثة مثل الحنظل من الأشجار التي لا قرار ولا رسوخ لها في الأرض فهي تُقتلع من أصلها بأقل عمل ، وتقتلع بجذروها بأدنى تعمل ، ولا يجتني منها غير خبيث الثمر ورذاله . وكذلك الكلام الطيب يدخل في القلوب فيبقى راسخاً فيها ، وتحفظه الكتب فيبقى حياً فيها الى ما شاء الله ، يغذي النفوس بطيبه كلما رددته الألسن ، وينفذ من الأسماع الى قرارات النفوس فيستقر فيها ، فتنعم بطيبه وخيره ، وتهنأ بثماره المعنوية . والثمار المعنوية خير وأبقى من الثمار المادية . والكلام الخبيث لا يقوى على القيام بنفسه ، تكرهه الأسماع ، وتمجّه النفوس ،

فلا قرار له ولا بقاء ، كالضباب يغطي الرياض برهة فيزول ، والنفوس منه منقبضة ، والقلوب له كارهة .

— ٢٣ —

في من ينجز عملا صالحاً مفيداً له أولاه وللمجتمع ، ثم يفسده ويبطله بعد إتمامه بعمل نقيضه ، فيخسر الفائدة والثواب ، ويضيع الوقت بالعبث .

« ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » .

(النَّكث) بالفتح النقض . و (النِّكث) بالكسر ما نقض من الغزل والأكسية ، جمعه (أنكاث) .

فما أوجز هذا المثل ؟ وما أدقه ؟ في تصوير مثل هذا العمل الذي لا يأتي به إلا أخرق أحمق .

— ٢٤ —

في زوال النعمة بكفرانها بطراً ، وحلول النقمة بدلها ، جزاءاً وفاقاً .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

الرزق (الرغد) الطيب الواسع . يقال رغد عيشه رغداً اذا طاب واتسع .

فشكر النعمة بالعمل بها في الصالحات ، يديمها . وكفرانها بالعمل بها في الموبقات والتبذير ، وبالتخلف عن الشكر ، يزيلها .

إذا كنت في نعمة فارعَها ... فان المعاصي تزيل النعم

فأمهر المصورين لو أراد أن يصور بالذهن في لوحة ، قرية تتدفق عليها الخيرات الناعمة الكثيرة من سائر الأماكن والأطراف . وأهلها آمنون مما يكدر صفوهم ، مطمئنون في رغد عيشهم ، ثم يأخذهم البطر ، فينصرفون عن رعاية تلك النعم العظيمة بالشكر ، الى كفرانها بالعمل خلاف مقتضى الشكر ، فتضيع النعم ، ويحل البؤس والنقم ، فيتبدل رغد

عيشهم جوعاً ، ورفاهية أمنهم وحلاوة طمأنينتهم ، خوفاً محرجاً مراً ، أقول لو أراد المصور الأمهر أن يتحف الأذهان بتصوير هذه الشؤون والمعاني ، للاعتبار ، لوقف عاجزاً أن يأتي بما يقارب ما يصوره هذا المثل الموجز لفظاً الواسع المطنب معنى .

— ٢٥ —

في المقايسة بين الصنم العاجز ، وبين الخالق القادر ، أو بين الأمة المستعبدة المقيدة ، وبين الأمة الحرة الطليقة المالكة نفسها .

« ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستويان » .

صورة كلها بيان ودقة في إظهار البون الشاسع بين الفريقين ، ليدرك ذو اللب أيُّ الفريقين أحق بالاعتبار .

— ٢٦ —

في الموازنة بين الفَسدم البليد العاجز الكلّ على غيره ، وبين المصلح المستقيم اللامع .

« وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .

(الكَلُّ) الثقيل لا خير فيه ، جمعه كلول .

المثل يصور للذهن شخصين ، جمع أحدهما البُكم والعجز والبطاءة وثقل الطبع ، على من يعتمد عليه ، لا يأتي له بخير في أيِّ عمل يوجهه إليه . ويصور له شخصاً آخر مصلحاً ، على نهج مستقيم ، يطلب من الناس الأخذ بالعدل في أعمالهم وتصرفاتهم . ثم يطلب منك أن توازن بينهما في المماثلة والمساواة .

— ٢٧ —

في الطاغي المغرور بماله الغافل عن شكر الله (ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) .

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا

بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً » .

(يحاوره) يراجعه في الكلام . يقال (تحاوروا) أي تراجعوا الكلام بينهم .. (حسباناً) جمع حسبانة وهي الصاعقة والبرَدَة (الصعيد) وجه الأرض (زلقاً) أملس لا تثبت عليه القدم . (غوراً) غائراً ذاهباً في جوف الأرض . (خاوية) ساقطة . (عروشها) العرش ما يستظل به كالعريش ، وعرش البيت سقفه . وعرش الكرم فروعه ودواليه تفرش على قوائم خشب ونحوه فتصبح كالمظلة .

فما أبلغ ما صوره هذا المثل من غفلة المغرور ، وترفعه بغروره على من هو دونه في الثراء ، وتعسفه وزهوه وخيلائه في المحاورة ، وجهله قيمة نفسه وضعف قوته ، وازدرائه بصاحبه ، وما اكتسبه في غروره من خسران فظيع ، مع فقد الناصر له ، ومجافاة النصر إياه . وما أبلغ هذه الصورة عظة للأذهان المدركة .

— ٢٨ —

في زهرة الحياة الدنيا الفانية :

« مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح) .

(هشيماً) يابساً متكسراً . (تذروه) تفرقه وتطيره وتذهبه .

أبين مثل ، وأعمق تصوير ، للحياة الدنيا . فبينا نراها زاهرة تملأ الصدور فرحاً ، والنفوس سروراً ، والقلوب آمالاً ، إذا هي مظلمة داكنة ، طعمها صاب ، وأيامها عذاب ، بعد أن كانت عذابا ، ومباهجها أحلام وسراب ، كالنبات يهيجه الغيث الدّوم ، فتصبح الأرض مخضرة نضرة ، غـــذية عطرة ، حتى إذا استغلظ واستوى ، وبلغ المدى ، أصبح هشيماً تذروه الرياح كأن لم يكن بالأمس . وهكذا الحياة الدنيا وزينتها .

— ٢٩ —

في ضعف الباطل ، ووهنه وخوره ، أمام الحق في سلطانه وقوته وسطوته .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » .

(نقذف) نرمي . (دمغ فلان فلاناً) ضربه على دماغه . فالتعبير في المثل (يدمغه) من باب المجاز (زاهق) مضمحل . زهق الباطل أي اضمحل .

أروع مثل يصور بأوجز عبارة ، مبلغ قوة الحق وسلطانه على الباطل ، وأن الباطل لا يقوى على مصارعة الحق ، فالحق راسخ والباطل مضمحل .

— ٣٠ —

في من يخضع له الناس ، ويستمدون العون منه : وهو في الحقيقة والواقع عاجز عن الذبّ عن نفسه وماله .

« ضرب الله مثلا فاستمعوا له . إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب) .

(استنقذه منه) خلصه منه واسترجعه اليه .

أطرف وأدق مثل في تصوير من يتخذه الناس سنداً وعوناً في شؤونهم ، وهو أضعف من الذباب وأحطّ منها في الواقع ، كالأصنام ، فانها عاجزة عن دفع الذباب عنها . بل هي عاجزة عن استرداد ما يأخذه الذباب عنها من طيوب ضمخت بها ، ودهون مُسحت بها . فما أسفه

من يعبدها ، وما أجهل من يستنجد بها . ومظلم في الحكم من يتخذ شرار الناس أئمة ، ومنافهم قادة . وضلالهم هداة . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

— ٣١ —

في كيفية استيلاء الله تعالى على العالم ، وانكشاف العالم وظهوره بوجوده وقدرته وحكمته :

« الله نور السماوات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » .

(المشكاة) الطاقة غير النافذة . وقد شرح الإمام الحجة أبو حامد الغزالي عليه الرحمة في رسالته (مشكاة الأنوار) هذا المثل العظيم شرحاً اقتبس أنواره من نور الألوهية ، بالهام من تجلي الربوبية .

وليس بمقدوري أن أوفي هذا المثل المعجز حقه من الشرح والتأويل في هذا المقال الموجز بيد أني اعتقد أن من تدبره وتعمق في تفهمه ، وله ذوق صوفي ، وعلم بالأشعة والأنوار ، يدرك منه تصوراً بليغاً لوجود العالم وقيامه بوجود الواحد القهار ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

— ٣٢ —

في تصوير مبلغ أعمال المفسدين — ومنهم الكافرون بالله أو بأنعمه — الخادعين ، ومقدار نفعها والانتفاع منها .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد

يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

(السراب) شعاع يرى على الأرض وسط النهار في شدة الحر يشبه الماء . (قيعة) جمع قاع . (لجيّ) عميق . (الضآن) العطشان .

يصور هذا المثال أعمال المفسدين التي يخدع ظاهرها ، وهي لا قوام لها ولا حقيقة تقوم عليها ، بالسراب الذي يخدع الضآن ويضله ، فيسعى اليه متلهفاً طلباً للماء ، فاذا جاءه لم يجد ماءا . فيخيب أمله ويضيع سعيه ، ويندم على ما فات ، إذ لم ينتفع بتشبثه بالسراب، وهكذا أعمال المفسدين . وهي من وجه آخر كقطع الليل المظلم لا يتبين منها خير وليس لها نصيص من نور يرمق ، بل هي حالكة أشد الحلكة ، كظلمات في بحر عميق تشتد الظلمة فيه وحشة ، تتراكب الأمواج عليه بعضها فوق بعض ، فتزداد الظلمة حلكاً . تتأوه سحاب ، وماؤه عباب . نهاره فاحم ، وليله قاتم . ظلمات بعضها فوق بعض .

— ٣٣ —

في تصوير من يلتجىء في اتقاء السوء والاستزادة من الخير ، الى ملجأ وهن لا يدفع ضراً ، ولا يدرأ شراً . أو يأوى الى ركن ضعيف ، لا يسند من ركن اليه، ولا يحمي لمظهرا .

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت » .

(الولي) النصير والمنعم ، جمعه (اولياء) . (أوهن) أضعف .

ما أصدق هـذا التصوير البارع لمن يستقوي بغير الله تعالى ، ويستعين في درء المكاره عنه بغير القادر القاهر ، ويتخذ غير الله تعالى وليّاً له .

— ٣٤ —

في خطأ اعتقاد الإنسان بأن يكون لله شريك في ملكه ، بدليل مما عليه الانسان في ملكه .

« ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء

في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم . كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون . بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » .

(ما ملكت أيمانكم) أي مماليككم .

وجه المثل ، هو أنكم لا تسلمون بأن يكون لمماليككم شركة معكم في أموالكم وأرزاقكم ، ولا تعتبرونهم سواء معكم في تلك الأموال ، فتلاحظونهم كما تلاحظون أنفسكم فيها ، ولا ترضون بذلك ، فينبغي أن يكون الأمر كذلك في الله تعالى مع عباده ، فلا يجوز أن يكون لأحد من عباده شركة معه في شيء من ملكه . فما لا ترونه صحيحاً فيكم ، كيف يجوز لكم أن ترود صحيحاً في حق الله تعالى . فالصورة التي لا تستبيحونها لأنفسكم لا يجوز أن تستبيحوها في حق الله تعالى ، والحال التي لا ترضونها لأنفسكم كيف ترضونها لله تعالى . فلا شريك لله تعالى في ملكه .

— ٣٥ —

في تمثيل حالة من رافقه الخذلان ، وجفاه التوفيق ، وعدته الهداية ، وحالفته الضلالة ، فأصبح لا يرى نور الحق ، ولا منار الصواب . ولو كانت له عينان براقتان .

« إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

(الغُلّ) طوق من حديد أو قدّ يجعل في العنق أو في اليد . جمعه (أغلال) . (الذقن) مجمع اللحيين ، (مقمحون) رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها . يقال (قمح الغُلُّ الأسيرَ) ترك رأسه مرفوعاً لضيقه . (فأغشيناهم) غطيناهم .

لو أراد المصور أن يصور مثل هذا الخائب الخاسر ، تصويراً يوحي الى الذهن حالة الشخص الذي لا يرى نور الهدى الساطع ، ولا مناره اللامع ، وهو حديد البصر ، عالي النظر ، لما استطاع في اداء مراده أن يخرج عن الحدود التي رسمها هذا المثل في تصوير تلك الحالة .

— ٣٦ —

في تمثيل عناد الجهول العنيد الذي لا يتدبر ولا يتذكر .

« واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم . بل أنتم قوم مسرفون » .

(فعززنا بثالث) فقويناهما بثالث ، يقال (عزّزه) أي قواه . (تطيّرنا) تشاءمنا ، يقال تطير به وتطير منه ، والاسم (الطيرة) وضدها الفأل ، كأن يسمع المريض (ياسالم) وطالب الضائع (ياواجد) .

كتب هذا المثل أوضح تصوير للعنيد الجهول : يكذّب بلا دليل ، ويرد الشاهد بلا حجة ، ويقيم نفسه مقياساً لغيره فلا يجوّز أن يكون من هو من نوعه ومثله أرقى منه ، وإذا أعوزه الدليل أصرّ على الانكار والتكذيب ، لا يساير مجاملة الخصم أياه ، وإذا خسر الحجة لاذ بالتشنيع والتهديد ، وهو بعد هذا لا يرجع إلى التفكير في نفسه وسوء عمله ؛ ليعرف نفسه ، ومن هو ، وكيف يجب أن يناظر ويجادل ، ويكسب الصواب . إنه لمثل عظيم ، من عزيز حكيم .

— ٣٧ —

في تصوير الفرق الكبير والبون الشاسع ، بين الخالص لجهة واحدة وبين المرتبط بجهات مختلفة : كالموحد والمشرك ، والمخلص والمنافق .

« ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » .

(متشاكسون) مختلفون عسيرون ، أي متنازعون صعبة أخلاقهم ، والشَّكِس ، هو صعب الخُلُق ، جمعه (شُكْس) . (سَلَماً) خالصاً . نعم . لا يستوي المستقل والمشترك . فان بينهما تفاوتاً عظيماً في السلوك ، والتصرف ، والاستقلال ، والمنزلة . فالمشترك منحط في هذه الأمور ونحوها عن الموحد . والمنافق بعيد فيها كل البعد عن مقام المخلص .

— ٣٨ —

في تصوير النعيم المقيم ، والعيشة الرغدة .

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » .

(آسن) متغير الطعم ، ومثله الآجن ولكن تغير الآجن شديد يعافه الشارب . (لذة) لذيذة .

ما أطيب العيش في هذا المغنى وما ألذه . جمع أطايب النعم ، ولا سائل فيه ولا مسؤول ، ولهم مغفرة من ربهم .

— ٣٩ —

في تمثيل الحياة الدنيا ، الزاهرة ، فالذابلة ، فالفانية .

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » .

(أعجب الكفار) أعجب الزراع . فالزارع يسمى كافراً وكذلك الليل والبحر ، من كَفَرَ الشيءَ إذا غطّاه (حطاماً) ما تكسر من اليبيس .

تصوير بليغ لحياة تبسم فتعبس ، وتزهر فتذبل ، وتشرق فتغيب ، وتنمو فتموت . وما عند الله خير وأبقى .

— ٤٠ —

في جلال القرآن العظيم ورزانته . وما يحمله للناس من حِكَم وعلوم وهدى وموعظة ، وما ينطوي عليه من ترغيب وترهيب ، وتبشير وإنذار .

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

(خاشعاً) ذليلاً خاضعاً . (متصدعاً) متشققاً . الصدع الشق في شيء صلب — فاصدع بما تؤمر ، أي شُقّ جماعتهم بما تؤمر به وهو التوحيد .

هكذا القرآن العظيم كلام الله تعالى . جلالة ووقاراً وعظمة . فهو حريٌّ أن تذل وتخضع له الجبالُ التي هي أقوى أوتاد في الأرض . وأن تتشقق لهيبته وجلاله ، لأنه أقوى منها وأرسخ . — فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً — .

— ٤١ —

في تصوير من يملك خزائن العلم ولكن لا يفيد منها شيئاً ، وهي أقرب اليه من حبل الوريد :

« مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » .

(أسفارا) كتباً ، جمع سِفْر وهو الكتاب .

أطرف تصوير ، وأظرف تمثيل ، وأصدق تقرير ، لمن كانت وسائل العلم منه على التمام وهو لا يستفيد منها ، أو كان عالماً بعلم ولكن لا يعمل به . فهو شبيه بحمار أوقر كتباً . — والكتب أوعية العلم — فان كلاً منهما لم يستفد من الكتب التي لديه ، والعلم الذي يحمله على ظهره أو في صدره .

— ٤٢ —

في تمثيل من أوتي بسطة في الجسم ، ورثيا في المنظر ، وزخرفاً في القول ، وهو أحمق

وعديد ، يخاف من ظله :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم . كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم » .

(خشب) جمع خشبة . (مسندة) مالة الى ما يسندها كالحائط .

وهذا خلاف من أوتي بسطة في العلم والعقل والجسم ، فهذا الثاني عالم قوي أخو صدق وذلك الأول جاهل جبان عدو ، خداع منظره ، زخرف قوله .

— ٤٣ —

في أن كل امرئ مجزى بعمله ، له ما كسب وعليه ما اكتسب ، لاينفعه أو يضره في ذلك حسب أو نسب .

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا أمرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا أمرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

ما أوضح هذا المثل وأصدقه في ميزان الأعمال ، فان الأعمال أنفسها هي الموازين والمقاييس والمعايير لأنفسها ، لا دخل في هذا لشفيع ولا لصديق حميم . (يا فاطمة بنت محمد أعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً) .

— ٤٤ —

في تمثيل مقام الصادقين المخلصين في أعمالهم الصالحة ، جزاء وفاقاً :

« متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا

من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأســاً كان مزاجها زنجبيلا . عيناً فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا . واذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورا » .

(الأرائك) جمع أريكة وهي سرير منجّد مزين في قبة ، أو كل ما يتكأ عليه من سرير ومنصة وفراش . (زمهريرا) برداً شديــداً . (قطوف) جمع قِطف ، وهو العنقود وكل ما يقطع من الثمار أي يقطف (مزاجهـا) مزاج الشيء ما يخلط به . والزنجبيل مادة تخلط بالماء فتستلذ العرب بشربه (سندس) نوع من رقيق الديباج . (إستبرق) ما غلظ من الديباج .

تصوير وتمثيل لمقام كريم ، فيه نعيم مقيم ، وملك عظيم ، ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب .

هذه طائفة من أمثال القرآن العظيم باصطلاح القرآن نفسه ، تصور لك الحقائق ، وتهدي الى سواء السبيل .

وطريقة ضرب الأمثال الصحيحة في كشف الحقائق ، وبيان الأمور المبهمة ، وتوضيح الشؤون المعنوية ، طريقة تعليمية مُثلى ، لا تتيسر إلا لمن أسبغ الله عليه فضله ، ـ والله ذو الفضل العظيم ـ كالأمام الحجة الغزالي عليه الرحمة ، وأضرابه من الأئمة الذين أقاموا أنفسهم وعاظاً مرشدين ، وهداة مخلصين . فقد سلكوا في إرشادهم هذه الطريقة المثلى .

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون » .

— الأمثال العامية —

في العربية العامية العراقية أمثال وفيرة سائرة في بغداد والموصل والبصرة وسائر المدن الأخرى ، وفي الأرياف والقبائل . أمثال تحمل معاني حكيمة بالفاظ موجزة ، لا يقل عمق معانيها ، وإيجاز عباراتها ، وقوة النطق بها ، عن أمثال الجاهلية وماحصل بعدها من الأمثال التي جمعها السلف . ولا شك أن الشطر الأكبر من هذه الأمثال قد ضاع . فان الرقدة الطويلة التي رقدها العرب عن الأدب ، أضاعت عليهم شيئاً كثيراً منه .

وهذا النوع من الأمثال ليس من قبيل الأمثال القرآنية التي انتهينا من الكلام فيها آنفاً ، وإنما هي من قبيل الأمثال المبحوث فيها في علم الأدب والتي جمع أسلافنا من الأدباء الشيء الكثير منها على ما مرّ ذكره في صدر المقال .

إذ في الأرياف العراقية والعشائر العربية أدباً لم يطرق أبوابه أحد من الأدباء ، أو هواة الأبحاث الأدبية . فلم يجشم أحد منهم نفسه كلفة التتبع والاستقراء لجزئياته ، ولم يجهدها في جمع مقوماته ، ثم تصنيفها وتبويبها ، ونشر ما يستملح منها ، كما فعل أسلافنا في النهضة العربية الثانية العظمى ، بظهور الإسلام . مثل الأصمعي وابن الأعرابي وأبي زيد ، وحماد الراوية ، وخلف الأحمر والخليل الفراهيدي ، وعشرات أمثالهم .فقد جابوا سائر النواحي ، ورافقوا القبائل العدنانية والقحطانية فأقاموا بين ظهرانيهم سنين يجمعون مفردات اللغة ، وعيون الشعر ، وطرائف الأدب ، وبليغ الخطب والمحاورات ، وما الى ذلك من فصول الأدب ومقوماته . فدونوا علوماً عربية ، واستنبطوا فنوناً أدبية ، حصرها ابن الأنباري في (نزهته) باللغة ، والنحو ، والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم ، والجدل في النحو ، وعلم أصول النحو . فخلفوا ثروة أدبية عظيمة نمت وعظمت ، وأثمرت علوماً أدبية أخرى مثل علوم البلاغة : المعاني ، والبيان ، والبديع ، وغيرها من علوم تتصل بالأدب رأساً أو بالواسطة . ثم خلف من بعدهم خلف اخلدوا الى الراحة ، فاضاعوا من الأدب كثيراً ، ووقفوا به جامداً حصيراً .

أن في القبائل والأرياف من الشعر الرقيق ، والتشبيه العجيب ، والقصص الممتعة ،

والأغاني الملذة ، والأنغام المثيرة ، والمحاورات اللطيفة . والفكاهة الحلوة ، والرثاء البليغ ، ونحو ذلك من مقاطيع الأدب وأبوابه ، ما تنشرح به الصدور ، وتتفتح له القلوب . ولات حين إفاضة في الموضوع ، والبحث معقود في الأمثال العامية ليس غير .

ولكني في هذا المقام أدعو الى الالتفات اليه ، والإلتفاف الى محيي الابداع في الآداب ، والانضمام الى الراغبين في التطريف والمتطوعين في نصرة الأدب . هـذا واليك نماذج من الأمثال العامية العراقية :

١ — زمانتين بفد إيد ما تنلزم : لا تمسك رمانتان بيد واحدة .

يضرب لمن يشغل نفسه بعملين في آن واحد فانه إما أن لا يستطيع إنجازهما أو ينجزهما ناقصين .

ان كلمة « فد » بليت بها اللغة العامية العراقيـة يستعملها العامي والمثقف والعالم والجاهل عند التخاطب استعمالا كثيراً شائعاً فيقول مثلا : (اخذت فد كتاب جيد) أي اخذت كتاباً جيداً . و (اكلت فد أكلة طيبة) أي أكلت اكلة طيبة . و (انطيني فد قلم) أي أعطني قلماً . فكلمة (فد) قائمة في استعمالهم مقام تنوين التنكير . واصل فـد (فرد) أي واحد ثم خففت الى (فد) بحذف الراء .

٢ — لا شيش ولا كباب : أي لا تفريط ولا إفراط .

يضرب لمن يبالغ في الأمر أو يقتصد اقتصاداً كبيراً . و (الشيش) كلمة عامية غير عربية يقصد بها (السفود) الذي يشوى به اللحم و (الكباب) كتلة من اللحم الناعم تسوّى على الشيش باطرافه ثم تشوى به فيكون كباباً . (لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط)

٣ — لا حضّتْ برجيلهَ ولا خذتْ سيد علي . أي لا هي احتفظت بزوجها ولا هي استطاعت أن تتزوج بزوج آخر بعد أن ضيعت زوجها . فقد رجعت بخفي حنين . والظاهر أن امرأة ذات زوج طمعت في زواجها برجل أعجبها لسبب ما اسمه

(سيد علي) ففارقت زوجها بوجه من الوجوه وأخلف (سيد علي) ظنها فلم يتزوجها . فضيعت زوجها ولم تظفر بسيد علي زوجاً لها . فخسرت الرجلين .

يضرب مثلا لمن ضيع ما في يده من نعمة طمعاً في الحصول على أحسن منها لكنه لم يحصل على شيء ، فعض بسن الندم .

٤ — كُلُّ مَنْ يُجُرُّ النَّارْ لِكَرْصَتِهْ . (الكَرْصَة) الرغيف . أي كل امرىء يقرّب نار (الموقد ، أو الكانون ، أو الأتون ، ونحوها) الى رغيفه ليشويه لمصلحته ومنفعته غير مبال برغيف غيره ونفعه .

يضرب لمن يُعنى بمنافعه الخاصة ويحرص عليها ، من دون أن يلوي الى مصالح غيره أو يبالي بها . (لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه) .

٥ — جَاكِ ٱلْوَاوِي ، جَاكِ الذِّيبْ . : (الواوى) ابن آوى .

يضرب لمن هو معرّض لحوادث المخوفة المتتالية . فهو يشبه صاحب مزرعة فيها غنم ودجاج ، والذئاب وبنات آوى تتحين الفرص لاختطافها فهو تحت ظل الخوف دائماً .

٦ — مَحَّدْ يِكْسُولْ لِبَنِي حامض : لا أحد يقول عن لبنه إنه حامض . ويقصد من (اللبن) هنا الحليب الرائب لأنه هو المعروف عند العوام بهذا المعنى .

يضرب مثلا في اعتزاز كل امرىء ببضاعته فلا يبوح بما فيها من عيب ، أو في اعتزازه بما يحسنه من أمور مادية أو معنوية ، فهو يخفي ما في ذلك من عوار أو ضعف .

٧ — جَاني إِيد من وَرَهْ وإِيد من كِدَام : أي جاءه خلوي الوفاض . (وَرَه) أي وراء . (كِدَام) أي قدام .

يضرب مثلا لمن ذهب بشيء ثم رجع وقد ضيعه ، أو ذهب ليكسب فضيع رأس ماله مع ربحه . وأصل المثل أن رجلا ، خرج مسافراً ولم يبعد عن بلده كثيراً حتى سلبه السراق ثيابه وبقي عارياً فرجع إلى أهله يستر سوءته بكفيه .

٨ -- إلبَلَل ما يجف من المطر : أي من كانت ثيابه مبتلة لا يبالي أن يصيبه المطر .

يضرب مثلا لمن تمكّن منه أمر مكروه ثم بدا له مكروه آخر .

٩ -- إضربني بسيفه واحسبني وِيّ الحرامية : أي احسبني في عداد السراق ولو أدى ذلك إلى جلدي مائة جلدة . وهو حد السارق .

يضرب مثلا لمن يجب أن يشتهر بما ليس فيه لمجرد المباهاة وإن أدى ذلك إلى ضرره ضرراً بليغاً .

١٠ -- إخرّب دست طبيخ على فلسين ملح ، أي يفسد قِدراً طعاماً لبخله بالقاء قليل من الملح فيه .

يضرب في من يبخل بشيء قليل فيفسد عليه بذلك شيء كثير .

١١ -- إيدق ماي يطلع ماي : أي من يدق على ماء في هاون أو نحوه ، لا يحصل من عمله غير الماء . فعمله عبث .

يضرب في من يحاول القيام بعمل لم تتوفر فيه عوامل النجاح .

١٢ -- إذا عثرت الفرس ما يقصّون رجلَه :

يضرب في الكريم إذا بدت منه هفوة . فانه يجب أن يعذر ، لأن هفوة الكريم مغفورة . وعثرات الكرام تُجبر .

١٣ -- إشتري بعقلك حلاوة : أي ان عقلك يصلح ثمناً للحلاوة . وأصل المثل هو ان مشتري أسقاط الحديد كانوا يتجولون في الطرقات يحملون كمية من الحلاوة الرديئة جداً ، وهم ينادون لشراء أسقاط الحديد بها من الصبيان ونحوهم .

يضرب لمن يُستخف عقله . كأنهم يقولون له أن عقلك آفن لا يصل إلا إلى الأخطاء ولا يدرك غيرها ، كاسقاط الحديد لا يستجلب بها الا الحلاوة الرديئة .

١٤ — اشتغل بفلس وحاسب البطّال : مأخوذ من قول ابن الوردي في لاميته المشهورة : إكسب الفلس وحاسب من بطل .

يضرب لمن آثر الراحة على الكدّ فترك العمل معتذراً بقلة الربح من عمله ، أستنهاضاً له للعمل .

١٥ — إلّيا كل إضرسو ينفع نفسو :

يضرب للحث على أن يمارس المرء أعماله بنفسه ولا يوكل أموره إلى غيره . ماحكّ جلدك مثلُ ظفرك ، فتول أنت جميعَ أمرك .

١٦ — كل كَشّه بمعلكه بكراعْتَهْ . يراد من (كشّه) جثة الحيوان — من غنم ونحوها — بعد ذبحه . (الكراع) معروف . فان القصاب يعلق كل جثة في سنارته من كراعها هي . فكل جثة مستقلة بنفسها في أمر تعليقها ، لا ارتباط لها بغيرها . فلها ما لها وعليها ما عليها — لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت — .

يضرب لمن يغيب الناس ويذم أعمالهم بدون حق ، ليكف لسانه . فكأن المثل يعني (كلُّ نفس بما كسبت رهينة) أو (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

١٧ — عينكْ على ما لكْ دوه : أي ان ملاحظتك لما ملكت يداك هي الحارس الأمين لها وهي الدواء الواقي لها من علة الضياع .

يضرب لمن لا يُعنى بمراقبة أمواله بنفسه فيتسرب إليها الضياع . ويضرب لحث المرء على مراقبة أمواله صيانة لها من الضياع .

١٨ — إلشّامس شامس والجمل جمل : النخلة إذا أثمرت أي لقحت تأبيراً صحيحاً جيداً تؤتي أكلها ثمراً طيباً مباركاً كاملا . وإذا لم تؤبر فان ثمرها يأتي رديئاً لا يصلح لأكل الإنسان ويسمى (شيصا) وإذا لقحت تلقيحاً ناقصاً أو خاطئاً نقص حملها حسب ذلك .

يضرب إذا وقعت كارثة فأضرت بقوم فأعرضوا عن تدارك الأمر واقتصروا على التلاوم وقعدوا مبلسين . فيقال لهم (الشـــاص شاص والحمل حمل) . أي مضى ما مضى فهلك ما هلك ونجا ما نجا ، وقضي الأمر ، فلا فائدة من القعود والتلاوم ، بل لابد من العمل لإعادة الأمور إلى مجاريها . فنسيان الكارثة والعمل لإصلاح الحال ألزم وأولى .

والأمثال العامية تعد بالآلاف لو استقصى جمعها من سائر أنحاء العراق . ولم أقف على من تصدى لجمعها سوى ثلاثة من الأدباء قام اثنان منهما في ذلك مشتركاً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وهما المرحوم السيد محمد سعيد من بيت آل مصطفى الخليل ، وهو بيت معروف له مقامه في الكرخ من بغداد ، والمرحوم عبد اللطيف ثنيان . وبيت آل ثنيان معروف له مكانته في الرصافة من بغداد . فقد وضعا كتاباً ضخماً لم يزل مخطوطاً بخط ثنيان محفوظاً عند ولده السيد يحيى ثنيان ، والثالث الأستاذ عبد الخالق الدباغ الطُنذلي في الموصل ، فقد وضع كتاباً على جزئين في الأمثال العامية في الموصل . وقد طبع كتابه ونشره فشكرناه .

فيذا لو نفرت طائفـــة من الأدباء إلى الأرياف والعشائر القاطنة والبادية ، تستقري ماعندهم من شعر وقصص ومثل ، وأنواع أخرى من القول ، وأوزان وبحور في النظم ، فتلتقط ما تستمليحه من ذلك ، في كتب ودواوين . إنها إن فعلت ذلك فسيظهر فيها مثل الأصمعي وخلف الأحمر ونحوهما من رواة الأدب الجاهلي والمخضرم ، وستجد الشيء الكثير من صنوف الأدب ، فيه جدة ، وفيه متعة ، وستضم هذا الأدب الطريف إلى أدبنا التليد .

وسيكون من أبوابه :

١ — باب شدو الرعا .

٢ — وباب تغريد الكروان .

٣ — وباب المناجاة .

٤ — وباب الأعراس .

٥ — وباب المفاخرة .

٦ — وباب المدح .

٧ — وباب التناوح في المعركة .

٨ — وباب الأمثال .

٩ — وباب النواح .

وأبواب كثيرة أخرى يظهرها لهم الاستقراء والتتبع .

وهذا الموضوع يستحق بحثاً طويلا خاصاً به ، بمقالات ضافية ، تنطلق بعدها أقلام الأدباء إلى التأليف فيه ، ثم ظهور نوع من الأدب العربي جديد ، وهو في الواقع قائم غير منظور إليه ، ناطق ولا سامع له ، لذيذ في الأدب ، يحلو مذاقه .

تصويب

الصفحة	السطر	المتن	الصواب
٢٠	١٧	ضرب الله مثلا	ضُرب مثل
٢١	١٨	يحسبه	يحسبه
٣٢	٥	السارق	السارق . في عرفهم